الحسين عبد اللطيف خضر
إمام وخطيب بوزارة الأوقاف

إشكاليات حول بعض معاني أحاديث الصيام والجواب عنها

الصيام ركن من أركان الإسلام، وله فضائل كثيرة، وقد ورد في فضله وعظم مكانته أحاديث عديدة، وفي بعض منها معان تحتاج إلى توضيح وبيان، ورفع ما يتوهم فيها من إشكال أو لبس، أشير إلى أبرزها كما يلي:

الإشكال الأول:

معنى تصفيد الشياطين؟ وكيف نزيل التعارض بين تصفيد الشياطين والواقع المشاهد من وجود الذنوب والمعاصي من البشر؟

١- الحديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»[1]. وفي رواية أخرى: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين»[2].

٢-معنى تصفيد الشياطين:

معنى قوله: (سلسلت الشياطين): أي: قيدت بالسلاسل والأغلال، شدت بالسلاسل، وقريب منه معنى (صفدت الشياطين): أي: شدت وأوثقت بالسلاسل، والصفد الوثاق، والصفد ما يوثق به الأسير من قيد وغل والأصفاد القيود[3].

قال العلماء في بيان معنى التصفيد:

أ-يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته، وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين.

ب- ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين. ويؤيد هذا الاحتمال الثاني قوله في رواية يونس عن بن شهاب عند مسلم: «إذا كان رمضان فتحت أبواب الرحمة، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»[4].

جـ- ويحتمل أن يكون تصفيد الشياطين عبارة عن تعجيزهم عن الإغواء وتزيين الشهوات[5].

٣- وجه الإشكال، والجواب عنه:

وإذا كان هذا معنى التصفيد، فكيف نرى الشرور والمعاصي في هذا الشهر موجودة، فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك؟

وأجاب العلماء عن ذلك من وجوه:

منها: أن تصفيد الشياطين يعني: عدم تسلطها على من يصومون صوما صحيحا كاملا روعيت فيه كل الآداب التي منها: عفة اللسان، والنظر والجوارح كلها عن المعصية، استجابة للحديث الذي رواه البخاري: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٦].

ومنها: أن المقصود تصفيد بعض الشياطين وهم المردة لا كلهم، كما جاء في بعض الروايات، منها ما جاء عن أبي هريرة بلفظ: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن»[٧]، أما غيرهم فلا يقيدون ولذلك تقع من الناس بعض المعاصي.

ومنها: أنه قد يكون المقصود تقليل الشرور فيه، فيعصم الله فيه المسلمين أو أكثرهم في الأغلب من المعاصي، ولا يخلص إليهم فيه الشياطين كما كانوا يخلصون إليهم في سائر السنة، لاشتغالهم بالصيام الذي فيه قمع الشياطين، وبقراءة القرآن، والذكر. وهذا أمر محسوس فإن وقوع ذلك فيه أقل من غيره.

ومنها: أنه لا يلزم من تصفيد جميعهم أن لا يقع شر ولا معصية؛ لأن لذلك أسبابا غير الشياطين كالنفوس الخبيثة والعادات القبيحة والشياطين الإنسية[٨]. بمعنى أن المعاصي التي تكون بسبب الشياطين تمنع، ولكن تقع المعاصي التي يكون سببها النفوس الخبيثة الأمارة بالسوء أو العادات القبيحة أو شياطين الإنس.

وكله هذه الوجوه محتملة، والحق أن الصيام الذي التزم فيه المسلم بآدابه وواجباته يكون ببعيد عن وساوس الشياطين، وكلما كانت المحافظة على قواعد الصيام وأصوله والباطنة متواجدة كان تأثير الشياطين ضعيفا أو غير ذي تأثير، والعكس بالعكس.

الإشكال الثاني:

كيف يكون رائحة الصائم أطيب من ريح المسك والواقع غير ذلك؟

أ- الحديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[٩].

ب - معنى الخلوف:

الخلوف: بضم الخاء المعجمة هو المشهور، وجوز بعضهم فتحها، أي: تغير رائحته. فمعنى الخلوف: تغير رائحة الفم نتيجة الآثار التي تخلفها المعدة وتتصاعد منها الأبخرة عند خلو الطعام[١٠].

جـ- وجه الإشكال والجواب عنه:

اختلف في كون الخلوف أطيب عند الله من ريح المسك، مع أنه سبحانه

عن أبي هريرة ﷺ، يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به»[١١].

ب- وجه الإشكال والجواب عنه:

اختلف العلماء في سر إضافة الصيام لله مع كون جميع الطاعات لله تعالى؟، وأجيب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: سر الإضافة أن الصوم بعيد من الرياء لخفائه، بخلاف الصلاة والحج والغزو والصدقة وغيرها من العبادات الظاهرة.

قال القرطبي: لما كانت الأعمال يدخلها الرياء، والصوم لا يطلع عليه بمجرد فعله إلا الله فأضافه الله إلى نفسه، ولهذا قال في الحديث: «يدع شهوته وطعامه من أجلي»[٢٠].

الوجه الثاني: قيل: لأنه ليس للصائم ونفسه فيه حظ، قاله الخطابي، ويؤيد ذلك قوله في رواية أبي صالح عن أبي هريرة «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به»[٢١].

الوجه الثالث: قيل معناه: أنا المنفرد بعلم مقدار ثوابه أو تضعيف حسناته، وغيره من العبادات أظهر سبحانه بعض مخلوقاته على مقدار ثوابها. قال القرطبي معناه أن الأعمال قد كشفت مقادير ثوابها للناس وأنها تضاعف من عشرة إلى سبعمائة إلى ما شاء الله إلا الصيام فإن الله يثيب عليه بغير تقدير.

ويشهد لهذا السياق رواية الموطأ: «فالصيام لي، وأنا أجزي به، كل حسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف، إلا الصيام، فهو لي وأنا أجزي به»[٢٢]. أي: أجازي عليه جزاء كثيرا من غير تعيين لمقداره، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(الزمر:١٠). والصابرون الصائمون في أكثر الأقوال.

الوجه الرابع: معنى قوله: (الصوم لي) أي: أنه أحب العبادات إلي والمقدم عندي. قال ابن عبد البر: كفى بقوله: (الصوم لي) فضلا للصيام على سائر العبادات. عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك بالصوم، فإنه لا مثل له»[٢٣].

الوجه الخامس: قيل: الاستغناء عن الطعام وغيره من الشهوات من صفات الرب جل جلاله، فلما تقرب الصائم إليه بما يوافق صفاته أضافه إليه. وقال القرطبي معناه: أن أعمال العباد مناسبة لأحوالهم إلا الصيام فإنه مناسب لصفة من صفات الحق،كأنه يقول: إن الصائم يتقرب إلي بأمر هو متعلق بصفة من صفاتي.

الوجه السادس: قيل هي إضافة تشريف وتكريم، كما يقال بيت الله وناقة الله ومسجد الله وجميع المخلوقات لله.

الوجه السابع: قيل سبب إضافته إلى الله تعالى أنه لم يعبد أحد غير الله تعالى به، فلم يعظم الكفار في عصر من الأعصار معبودا لهم بالصيام، وإن كانوا يعظمونه بصورة الصلاة، والسجود، والصدقة، والذكر وغير ذلك.

وفي الإجمال في الإضافة: بيان لعظم فضله وكثرة ثوابه: لأن الكريم إذا أخبر بأنه يتولى بنفسه الجزاء اقتضى عظم قدر الجزاء وسعة العطاء[٢٤].

الهوامش

١- البخاري، (٢٥/٣، رقم: ١٨٩٩).
٢- الترمذي، (٥٩/٣، رقم: ٦٨٢).
٣- ينظر: فتح الباري، لابن حجر: (١١٤/٤).
٤- مسلم، (٧٥٨/٢، رقم: ١٠٧٩).
٥- ينظر: فتح الباري، لابن حجر: (١١٤/٤)، وما بعدها.
٦- مسلم، (٨٠٧/٢، رقم: ١١٥١).
٧- صحيح ابن خزيمة، (٩٠٧/٣، رقم: ١٨٨٢).
٨- ينظر: فتح الباري، لابن حجر: (١١٤/٤).
٩- البخاري، (١٦٤/٧، رقم: ٥٩٢٧).
١٠- ينظر: شرح السنة للبغوي، (٣٢٢/٦).
١١- ينظر: فتح الباري، لابن حجر، (٤/ ١٠٦)، النووي على مسلم، (٣٠/٨).
١٢- ينظر: المنتقى شرح الموطأ، (٧٤/٣)، طرح التثريب، (٤/ ١٠٠).
١٣- البخاري، (٣٤/٣، رقم: ١٨٩٤)، مسلم، (رقم: ١١٥١).
١٤- الصيال الاستطالة والوثوب على الغير بغير حق، ينظر في دفع الصائل وأحكامه: الموسوعة الفقهية الكويتية، (١٠٦/٢٨).
١٥- ينظر: فتح الباري، (١٠٥/٤).
١٦- ينظر: المنتقى شرح الموطأ، (٧٤/٣).
١٧- ينظر: طرح التثريب، (٤/ ٩٣).
١٨- فتح الباري، (١٠٥/٤)، طرح التثريب، (٩٣/٤).
١٩- البخاري، رقم: (١٩٠٤)، مسلم، رقم: (١١٥١).
٢٠- مسلم، (٨٠٧/٢، رقم: ١١٥١).
٢١- البخاري، رقم: (١٩٠٤)، مسلم، رقم: (١١٥١).
٢٢- الموطأ، (٤٤٥/٣، رقم: ١١٠٠).
٢٣- النسائي، (١٦٥/٤، رقم: ٢٢٢٠)، مسند أحمد، (٤/ ٥٥٤، رقم: ٢٢٢٢١).
٢٤- النووي، (٢٩/٨)، فتح الباري، (١٠٨/٤).